القصص

صور من هوميروس

١٥ ـ حروب طروادة

صـــلح . . .

للاستاذ دريني خشبة

أشرقت الشمس أو كادت ، وبدت ذيتيس تتهادى في الأفق الغربي فوق الثبج ، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها ألحان الفجر ، طلّها الندى ...

وكانت تتأود تحت حملها الثقيل ، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى ألقت بالدرع المنرودة ، وحتى هب ولدها يحييها بعين شكرى ، ومهجة حرّى ، وقلب موجع حزين

وكان ما يزال جالساً أمام جثة پتروكلوس يبكيها ، ويكلم فيها الأخاء والوفاء ، ويناجي في لفائفها الود والولاء ، وكان ما يزداد إلا لوعة ، وكان ما يزداد إلا أنيناً !

وحنت عليه أمه تواسيه ؛ ثم لفتته إلى الدرع والخوذة ، فحدجهما بنظرة قاتمة ، وشكر لها هدية فلكان ، ثم أوصاها بالجثة خير ما يوصى به الصديق . . . « ذودي الذباب فلا يمسها يا أماه ، وادفعي عنها أذى أسرابه ، واسقيها من المعتقة الصفراء ، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى پتروكلوس بثأره ... ... »

وانطلق في غبشة الصبح يطوف بمعسكر الهيلانيين ، داعياً إلى مجلس حربي

وكان يهتف بالجند النائم هُتافاً عالياً ، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم ، واهتزت جوانحهم ، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل !

وكان أجل ذلك جميعاً أن ينهض أوليسيز متهالكاً على نفسه ، وديوميد مترنحاً في عطفه ، ونسطور مرتجفاً كأنه في يوم حشر ، ... و ... أجممنون ، كأن الحياء والخجل يصبغانه بحمرة الجحيم !! .....

لقد كانت جروح القادة أنطق برهان على ما جرّت تلك الخصومة الوضيعة بين أجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش ، وضياع للجهود ، وعبث بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار !

وانتظم عقد القادة ، ووقف أخيل يتكلم ، فأوهفت الآذان ، وصغت القلوب ، وتحركت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتلعه :

« ابن أتريوس العظيم »

« أخي في الوطن »

« يا أمير هذه الجيوش الغازية »

أرأيت ؟ ! أي جدوى عادت عليّ أو عليك من هذه القطيعة التي أججت نارها ، وأبدع بيني وبينك أوارها ، وأي غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم بن عظيم ، بل سليل آلهة عظماء ؟ !

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التي أثارت كل تلك العداوة ، وأغرت جميع تلك البغضاء بيننا ! إي وأرباب الأولمپ ، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس ، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر ، وما حاق بجحافلنا من خذلان ، لم يكن شيء منه يقع لولا ما أثارته بريسيز بيننا !

ولكن لا ! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة ، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ولكننا ، معشر الهيلانيين ، ينبغي أن نذكر أبداً أن لنا ثأراً عند هؤلاء الطرواديين ، لا محيص لهم من أن نأخذهم به ، وأن نطلبه عندهم ، فلا نرتد عنهم حتى ينال لنا منهم ، وتكون لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم ...

لتكبح جماح نفوسنا إذن ! وليطفئ كل من غيظه في سبيل هيلاس ؛ ولتندمل تلك الجراح التي تفتأ قلوبنا فتكاد تقضي على آمال أمة ؛ وتطيح بأماني الوطن !

أجاممنون ! بن أتريوس العظيم !

تلك يدى أضعها فى يدك ، عهداً مخفوراً وذمةً وفيةً ، ألا ندع أهواءنا تهدم ما طمحت إليه نفوسنا من قبل ، وأن نكون من الساعة يدا على عدونا ، وإلباً واحداً ... ...

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا ، أو يجازف بنفسه أمامنا ..... هذا رمحى ! وتلك قناتى ! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء ... ... ! »

وتدفقت الدماء فى عروق القادة ، وشعروا كأن السماء رفعهم اليها فتطهرهم وتزكيهم ، وتعود بهم الى الثرى قوماً آخرين ! .

ونهض أجاممنون من مكانه ، ولم يستطع أن يتقدم إلى مكان الخطابة ، فقال : « أيها الأصدقاء ! يا أبطال هيلاس ! ياوزراء مارس !

لست أدرى ما أقول ردًّا على أخيل العظيم ، بيد أننى سأفتح له قلبى ، وأكشف لكم أمامه عن سريرتى ، وسيد الأولمب على ما أقول وكيل !

أبداً والله ما كنت سبب هذه المأساة التى أغرت بيننا العداوة ، وأججت نيران هذه البغضاء ! وأبدا والله ما آثرت أن يكون بيننا ، ونحن فى هذا الأمر ما نحن ، شئ من تلك القطيعة التى دفعنا ثمنها غاليا : أرواحا مطهرة ، ودما زكيا ، وشبابا أنضر الشباب ! !

أبداً والله ما أثرت من ذلك شيئاً قط ؛ ولكنها القادر ، ومشيئة سيد الأولمب ، وهذه الربات التالبات « أرينيس [1] » اللائى تحالفن على ، فغشّين بصيرتى ، وأذهلنى عن نفسى ، فأتيت ما أتيت على غير وعى منى ، ولا هدى ولا برهان مبين ! ... ...

ولقد ثاب الى رشدى ، وارتفع الحجاب عن بصيرتى ، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر ، كأشد ما يكون حصار بين موتين ! عندها ، ذكرت أخيل ! وذكرت أننى آثم فى حق أخيل ، وأن أخيل لو كان فى هذه الحلبة لما ملك هكتور رشاده ، وما ملكت رجلاه أن تحملاه ! فزاغت عيناى ، واستبنت ضلالتى ، واستغفرت الآلهة من أجل آثامى !

أخيل :

ما أعظمك حين نسيت غضبتك ، وسعيت الى خصمك ، ومددت اليه يمينك من أجل الوطن ! مرحبا بك يا أخى ؟ ومرحبا بصلح يغسل الضغن ، ويذهب بالجفوة ، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعاً !

على أنى أرى أن أمهر صلحى وأؤكد محبتى ، باللُّهى الغالية ، والهدايا العالية ، وبكل مذخور ثمين ؛ فهلم يابن بليوس هلم ؛ هيِّ الصفوف وجيِّش الفرق ، حتى أعود اليك بتذكاراتى ... »

وأبى أخيل أن يلهو أحد فى تلك الساعة ، أو يشتغل إلا بالحرب . والاستعداد ليوم الفصل ؛ فشكر أجاممنون ، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته ؛ ولكن أوليسيز الجريح يتدخل ، ويرجو أن ينطلق أجاممنون فيأتى بالعطايا واللهى ، ... وبالقادة الفتيان ، بريسيز ، فتنة الفتن ، ونادرة الجمال ؛ نقية كما هى ، أخيلية كما فصّلت من خِدْر مولاها يوم الخصام الأكبر . وأنا أقسم لأخى على ذلك ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون »

ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون ، ويغسل أقسامه بالدمع السخين ؛ ثم يأمر خادمه (تلثيبيوس) فينطلق الى حيث يأتى بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه ... ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه وأعز الناس عليه : « پتروكلوس ! » .

ويلح عليه أوليسيز فى أن يأكل : « لأن الحرب شاقة ، ويومها دهر يأكله ، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان ... » وما يزيد أخيل إلا إباء !

وعاد أجاممنون

وكان أوليسيز نفسه يتقدم الركب الذى أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل . ونهض أجاممنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس ، ورضاء الضمير ، ثم قدم الهدايا الى ابن بليوس الذى كان يشهدها ويبكى !

وفى الحق ، لقد كانت لُهىً أحسن اللُّهى ، وهدايا على قدر مُهديها !

فهذه صناديق سبعة مقفلة ، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما غلت قيمته من كنتان مصر ، وخز الهند ، وحبر الشام ... وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت فى ليلة

(١) ربات ثلاث من زبانية بلوتو رب الدار الآخرة (هيفر) فى هيئة السعلاة ، ولهن مكان الشعر ثعابين تتلوى فوق رؤوسهن تمزقن أجسام المجرمين من الوتى ويذقنهم سوء العذاب (الشرح من الأستاذ جرير ص ١٣٩)

واحدة ، ولوّنتها الآلهة بألوان واحدة ، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها ، فكانت تخيل أوروبا !

وهذه أيضا عشرون دستاً من النحاس المزركش ، حليت سطوحها بالبناء والفسيفساء ، وتبارت فى حفرها كل يد صناع وفكر عتيد . وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب ، ويذهب سنا برقه بالأبصار !

وهذه بدر عشر من الذهب الخالص يحملها أوليسيز ويتقدم بها أبكاراً سبعاً من جملة الفتى ، كل منهن كأنها ثينوس حقيقية ، تميس كأنها بانة ، وتبسم كأنها أقحوانة ، وتبدى عن الدر النضيد ! !

ثم ...

هذه بريسيز ! بريسيز الهيفاء ، وأصل هذا البلاء ؛ الدمية التى أترعت بالفاتن ، وقاضت عيناها بسحر الهوى !

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار ، وتتقدم فتثب القلوب ، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر ، وشبابها الفينان !

فهل رأيت إلى العاصفة تقتلع الدوح ، وتطيح بالأيك ، وتهب على اليم النائم فيصطخب ، والبحر الوادع فيضطرب . . . و . . . على الغدير ذى الخرير فيرقص من رعشة كأن به مسّا من الخدر ! !

تلك هى بريسيز حين تبدت للقوم !

لقد هتف أوليسيز هتفة ضاعت فى انذهال الملأ بما يرى ، على ما تعرف من جبروت أوليسيز ، وشدة أيده . . . . . ثم هتف فتلفّت الناس ، وراح الرجل يكرر ما قيل من ثناء بريسيز وتمام طهرها ؛ وأخيل مطرق ساهم ، لا يكاد يعى مما يقال شيئا ! . . .

واستل أتريديس خنجره ، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه ، وهو فى ذلك كله يصلى لأربابه ، ويسبح بحمد السماء ، ويشكر لسيد الأولمب ما أتم من صلح شريف بين سليلى الآلهة . . .

ونهض أجاممنون فتقدم بريسيز إلى سيدها ، وعقّب بكلمة طيبة ، ثم أشار أخيل إلى الميرميدون فحملوا الهدايا ، وانطلقوا إلى أسطولهم بها ، ومعهم فتاة مولاهم فى صفوف موسيقية ، وفى موكب رهيب !

* * *

وانصرف القادة إلى زادهم ، والجنود إلى ميرتهم ، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل ، والصلح الذى بارکته السماء ، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل !

أما بريسيز فقد وصلت إلى سفينة مولاها ؛ فشدهها أن ترى إلى جثة باتروكلوس فى لفائفها وأكفانها ، وإلى هذه الأم البارة ، ذيتيس ، جالسة عندها تبكى ، وتدفع أسراب الذباب ، وتسقى القتيل خمراً ! !

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب ، ولقد تركته ممتلئاً صحة ، موفوراً شباباً ؛ نضر الصبى ، رنّان الأهاب ! ثم عادت فكان أشق عليها أن تراه مسجّى هكذا ! لا تأمة ! لا حركة ! لا نفس ! قتيلاً كأدنى من كان يقتل كل يوم روع ، طعيناً كأقل من كان يطعن كل يوم نزال ! !

ودارت الدنيا بالفتاة ، فراحت تملؤها ندبة وبكاء ! . . .

واجتمع لنبيها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين . . .

فما كان أروعه منظراً ، وما كان أحره إخلاصاً ! !

* * *

وأقبل فونيكس على أخيل يواسيه .

ولكن أخيل ما يرقأ له دمع ، ولا ينقطع له نحيب . . .

واطلعت أرباب الأولمب ، فشهدت ما يأخذ البطل من رُحَضَاء الحزن ، وبُرَحاء الأسى ، فأشار زيوس إلى ميرفا ، فهبت إلى أخيل ترعاه ، وتخفف عنه من بلواه . فلما كانت قاب قوسين من ابن پليوس ، هالها أن ترى إليه يعصف به الحزن ، ويوهنه الجزع ، والجند مع ذاك قد بُوِّئوا مواقف للقتال ! فما هى إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المنقعة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه ، وليخفف عنه من وطأة الجوع . ويصدع فونيكس ، فيتقدم إلى أخيل كاشفاً عن صدره ، ويصب السلافة الأولمبية فيشربها الجسم الصاوى ، ويسترجع بها ما فقد من قوة . . . وما يفتأ فونيكس يصب الخمر ، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوهاً ، حتى يكون فى كل قوته من أثر الخمر ، فيصيح صيحة الحرب . . . التى تهتز لها أبراج طروادة ! . . .

فانظر إليه مُقَنَّعاً فى حديد قلكان ، ، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التى لم تصنع مثلها يد الآلـه الحداد ، ، وانظر إليه يداعب حربة شيرون ، أستاذه السنتور العظيم ؛ ، ثم انظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه المُضَبَّتِمَيْن ، ومن حوله الميرميدون يملؤون الرحب ويسدون الشِّعاب . . .

ويل لك يا هكتور !

(لها بقية)

محمد عبد المطلب